

الإثنـيـنـ 05-09-2011

## 1466- "اللـعـبـ فـيـ الـوـعـيـ" وأـسـلـحـةـ الـانـقـراـفـ الـكـامـلـ (1 من 3)

### تعـتـعـةـ التـحرـيرـ

هل يمكن فهم ما يجري في العالم، بما في ذلك تسوناميـاتـ الـرـبـيعـ الـعـرـبـيـةـ دونـ الإـحـاطـةـ بـكـلـ المـخـاطـرـ الـخـيـطـةـ بـالـعـالـمـ؟ـ أـجـمـعـ،ـ هـذـهـ الـأـيـامـ خـاصـةـ،ـ وـمـنـذـ بـضـعـةـ عـقـودـ؟ـ

فـبـدـاـيـةـ كـتـابـ "خـدـعـةـ الـتـكـنـوـلـوـجـيـاـ"ـ،ـ يـنـبـهـ الـمـؤـلـفـ "جاـكـ إـيلـولـ"ـ إـلـىـ أـنـ "لـعـبـ الـحـقـيقـةـ تـنـطـوـيـ عـلـىـ مـخـاطـرـ،ـ كـمـاـ أـنـ لـعـبـ الـدـيـقـرـاطـيـةـ تـنـطـوـيـ عـلـىـ مـخـاطـرـ وـكـذـلـكـ لـعـبـ الـثـورـةـ،ـ كـمـاـ أـنـ تـأـدـيـةـ هـذـهـ الـأـلـعـابـ جـمـتـمـعـةـ تـنـطـوـيـ عـلـىـ مـخـاطـرـ".ـ

إنـ ماـ يـتـعـرـضـ لـهـ الـوـعـيـ الـبـشـرـيـ كـلـهـ خـاصـةـ فـيـ الـلـاثـ عـقـودـ الـأـخـيـرـةـ مـنـ خـلـالـ الـإـعـلـامـ خـاصـةـ أـصـبـحـ لـعـبـةـ مـنـ أـخـطـرـ مـاـ تـعـرـضـ لـهـ الـبـشـرـيـةـ عـبـرـ تـارـيـخـهـ.ـ وـأـخـطـرـ آـلـيـاتـ التـنـادـيـ فـيـ ذـلـكـ هوـ أـنـ تـمـلـكـ الـقـوـةـ الـمـسـنـوـلـةـ عـنـ هـذـاـ الـخـطـرـ كـلـ أـسـلـحـةـ الـانـقـراـفـ الـشـامـلـ،ـ تـبـيـثـهـاـ،ـ وـتـرـوـجـهـاـ،ـ وـتـسـعـمـلـهـاـ لـأـغـرـاضـهـاـ الـخـاصـةـ،ـ وـهـيـ لـاـ تـدـرـكـ مـخـاطـرـهـاـ الـتـدـهـورـيـةـ عـلـىـ مـسـتـوـيـ الـعـالـمـ دـوـنـ اـسـتـثـنـاءـ مـنـ يـسـتـعـمـلـهـاـ.

الـمـسـأـلـةـ تـتـعـلـقـ بـخـطـأـ تـطـوـرـيـ جـارـ يـهـدـدـ الـجـنـسـ الـبـشـرـيـ بـرـمـتهـ،ـ وـقـدـ اـسـتـطـاعـ بـعـضـنـاـ بـفـضـلـ ماـ غـيـرـنـاـ (ـوـاـمـتـحـنـاـ)ـ بـهـ مـنـ "ـوـعـىـ"ـ أـنـ نـدـرـكـ طـبـيـعـةـ وـحـجمـ وـسـرـعـةـ هـذـاـ الـخـطـرـ،ـ وـخـاـوـلـ تـجـنبـهـ،ـ لـكـنـ الـمـصـيـبـةـ أـنـ نـفـسـ هـذـاـ الـوـعـيـ الـذـيـ يـعـكـنـ أـنـ يـنـقـذـنـاـ مـنـ خـطـرـ الـانـقـراـفـ هـوـ مـاـ يـتـعـرـضـ لـهـ الـلـيـرـجـةـ الـمـغـرـفـةـ،ـ وـالـتـشـوـيهـ الـمـنـظـمـ بـالـلـعـابـ الـإـعـلـامـ،ـ وـتـفـاهـةـ الـتـرـبـيـةـ،ـ وـسـوـءـ الـتـدـيـنـ،ـ وـتـسـوـيـقـ دـيـقـرـاطـيـةـ مـغـشـوـشـةـ،ـ وـحـقـوقـ إـنـسـانـ مـضـرـوبـةـ.

الـوـعـيـ هـوـ غـيـرـ الـعـقـلـ،ـ وـالـلـعـبـ فـيـ الـوـعـيـ أـخـطـرـ مـنـ غـسـيلـ الـمـخـ،ـ الـوـعـيـ هـوـ غـيـرـ التـفـكـيرـ وـغـيـرـ الـذـكـاءـ وـغـيـرـ الـإـدـراكـ وـإـنـ شـلـهـاـ جـمـيـعـهـاـ.ـ الـوـعـيـ الـبـشـرـيـ،ـ بـمـاـ صـارـ إـلـيـهـ،ـ وـمـاـ تـمـكـنـ مـنـهـ،ـ هـوـ الـذـىـ جـعـلـ أـغـلـبـ مـاـ كـانـ يـتـمـ عـنـ أـسـلـافـنـاـ الـحـيـوانـاتـ بـطـرـيـقـةـ آـلـيـةـ لـخـفـظـ الـبـقـاءـ،ـ يـجـريـ عـنـ الـإـنـسـانـ وـهـوـ خـاضـعـ لـلـمـرـاجـعـةـ وـالـتـخـطـيـطـ وـالـتـعـديـلـ،ـ أـغـلـبـ النـاسـ يـفـضـلـونـ الـخـدـيـثـ عـنـ عـقـلـ الـإـنـسـانـ وـإـجـازـاتـهـ كـأـهـمـ عـلـامـاتـ مـاـ وـصـلـ إـلـيـهـ مـنـ تـطـورـ،ـ حـتـىـ أـنـهـمـ اـخـتـزلـوـاـ الـإـنـسـانـ إـلـىـ مـاـ يـسـمـىـ "ـالـحـيـوانـ".ـ

العاـقل" . . . إن من أـهمـ ما يـعـيزـ الإـنـسـانـ ، بـعـدـ رـحـلـتـهـ الرـائـعـةـ حـتـىـ الـآنـ ، هـوـ أـنـ وـعـيـهـ قـدـ تـطـورـ حـتـىـ مـاـ نـظـمـاـ بـهـارـكـيـةـ بـالـغـةـ الدـقـعـةـ مـتـشـعـبـةـ الـإـحـاطـةـ ، حـتـىـ تـصـورـنـاـ أـنـ نـشـاطـ الـعـقـلـ الطـاـهـرـ هـوـ الـعـاـمـلـ الـأـرـقـىـ جـداـ فـيـ تـنـظـيمـ حـيـاةـ الإـنـسـانـ كـانـ الـأـمـرـ قـاـمـراـ عـلـىـ التـرـكـيـزـ عـلـىـ النـشـاطـاتـ الـمـعـرـفـيـةـ وـالـمـنـهـجـيـةـ فـيـ جـمـالـاتـ بـذـاـهـاـ ، لـكـنـ الـعـقـلـ حـيـنـ تـحـاـلـفـ مـعـ إـيجـازـاتـ الـتـكـنـوـلـوـجـيـاـ وـالـعـلـمـ لـيـصـبـحـ أـدـاـةـ قـصـدـيـةـ لـلـإـسـهـامـ فـيـ تـشـكـيلـ وـعـىـ الـجـنـسـ كـلـهـ عـرـبـ الـعـامـ ، أـصـبـحـ الحـسـبـةـ أـعـقـدـ مـنـ الـمـنـطـقـ الـظـاهـرـ ، وـأـدـعـيـ لـلـنـظـرـ وـالـمـرـاجـعـةـ ، وـأـصـبـحـ كـلـمـةـ الـعـقـلـ مـدـوـدـةـ الـمـضـمـونـ بـشـكـلـ أـوـ بـآـخـرـ .

كانـ اـلـخـطـرـ قـائـماـ طـوـلـ الـوقـتـ عـرـبـ الـتـارـيـخـ الـمـعـرـفـيـ لـمـ لـهـ إـلاـ أـنـ التـبـاعـدـ الـجـغرـافـيـ ، وـالـاخـلـافـاتـ الـعـرـقـيـةـ وـالـإـثنـيـةـ وـالـدـينـيـةـ ، وـالـثقـافـيـةـ بـيـنـ جـمـاعـيـعـ الـنـاسـ ، كـانـتـ تـحـولـ دـوـنـ أـنـ يـعـدـ اـلـخـطـرـ الـتـدـهـورـيـ الـذـيـ يـظـهـرـ فـيـ بـقـعـةـ جـغرـافـيـةـ مـاـ ، أـوـ فـيـ حـقـبـةـ تـارـيـخـيـةـ بـذـاـهـاـ ، إـلـىـ الـجـنـسـ الـبـشـرـىـ كـلـهـ بـسـرـعـةـ غـيرـ مـلـحـوـقـةـ ، كـانـتـ مـثـلـ هـذـهـ الـمـخـاطـرـ مـدـوـدـةـ بـحـدـودـيـةـ إـمـكـانـاتـ الـاـنـتـشـارـ (وـأـيـضاـ بـالـخـرـوبـ وـالـإـبـادـةـ وـصـرـاعـاتـ الـبـقـاءـ بـيـنـ الـجـمـوعـاتـ الـمـخـتـلـفـةـ الـمـتـبـاعـدـةـ) . الـأـمـرـ اـخـتـفـ الـآنـ خـاصـةـ بـعـدـ اـنـهـيـارـ الـاـقـادـ الـسـوـفـيـقـيـ فـيـ أـخـرـجـ وـقـتـ عـرـفـتـهـ الـبـشـرـيـةـ عـرـ طـوـرـهـاـ . اـلـخـطـرـ يـتـزاـيدـ جـداـ حـيـنـ يـتـركـ الـأـمـرـ فـيـ يـدـ سـلـطةـ وـاحـدةـ تـحـاـولـ التـحـكـمـ فـيـ الـعـالـمـ تـحـتـ اـسـمـ الـعـولـةـ ضـدـ كـلـ تـارـيـخـ الـحـيـاةـ ، وـضـدـ الـإـنـسـانـ بـاـ وـضـدـ إـلـيـهـ وـمـاـ تـمـيـزـ بـهـ .

أـخـطـرـ اـلـخـطـرـ الـآنـ أـنـ تـلـكـ السـلـطـةـ الـتـىـ تـحـكـمـ (وـتـحـكـمـ فـيـ) الـعـالـمـ هـىـ

أـولـاـ: خـفـيـةـ ،

وـثـانـيـاـ: غـبـيـةـ .

وـثـالـثـاـ: أحـادـيـةـ .

وـرـابـعـاـ: نـاـشـرـ

لـمـ تـعـدـ هـىـ سـلـطـةـ الـدـوـلـةـ وـلـاـ حـتـىـ سـلـطـةـ أـفـرـادـ بـعـيـنـهـمـ مـثـلـ الـسـفـاحـينـ وـالـطـفـاغـةـ الـذـيـنـ عـرـفـهـمـ الـتـارـيـخـ ، هـذـهـ السـلـطـةـ الـفـاغـمـضـةـ الـنـاـشـرـ ، تـحـكـمـ الـعـالـمـ وـتـحـكـمـ فـيـ مـعـظـمـ أـسـلـحةـ الـانـقـراـضـ الـكـامـلـ (ولـيـسـ فـقـطـ الـدـمـارـ الشـامـلـ) غـيرـ مـدـرـكـةـ - كـمـاـ أـشـرـنـاـ - أـنـ اللـعـبـ الـجـارـيـ إـذـاـ مـاـ تـمـادـيـ حـتـىـ حـقـقـ مـاـ يـنـذـرـ بـهـ ، لـنـ يـسـتـثـنـيـهاـ مـنـ الـفـنـاءـ .

"الـوـعـىـ" كـمـاـ أـتـنـاـوـلـهـ فـيـ هـذـهـ الـأـطـرـوـحـةـ هـوـ الـوـظـيـفـةـ الـأـشـمـ لـلـوـجـودـ الـبـشـرـىـ بـيـولـوـجـيـاـ وـمـعـرـفـيـاـ وـوـجـانـيـاـ عـلـىـ مـسـتـوـيـاتـ مـتـعـدـدـةـ . هـذـاـ الـوـعـىـ هـوـ الـذـيـ مـكـنـ الـإـنـسـانـ مـنـ اـحـتـواـءـ تـارـيـخـهـ بـشـكـلـ غـيرـ مـسـبـوقـ ، مـثـلاـ: هـوـ الـذـيـ اـحـتـوىـ غـرـيـزةـ الـجـنـسـ حـتـىـ لـمـ تـعـدـ مـقـتـصـرـةـ عـلـىـ حـفـظـ النـوـعـ بـالـتـكـاثـرـ ، بلـ اـمـتـدـتـ لـتـؤـكـدـ خـاصـيـةـ أـخـرىـ ، لـاـ يـكـونـ إـنـسـانـاـ إـلـاـ بـهـاـ ، ذـلـكـ أـنـ الـكـائـنـ الـبـشـرـىـ لـاـ يـكـونـ إـنـسـانـاـ إـلـاـ وـهـوـ مـعـ - فـيـ عـلـاقـةـ بـ-إـنـسـانـ آخـرـ: مـخـلـفـ مـوـاـكـبـ مـتـفـاعـلـ مـبـدـعـ .

الوعي الذي أتحدث عنه ليس نقيف اللاوعي (اللاشعور بلغة التحليل النفسي الفرويدى) بل هو كل منظومة بيولوجية وجودية ظاهرة أو كامنة قادرة على التشكيل والتشكل لتحقيق هدف معين أو خفى. خن لا نملك الوعي في مقابل ما هو "لا وعي"، خن نعيش بمستويات متعددة من الوعي تتبدل وتحاول وتشكل طول الوقت.

هذا النوعي البشري هو أعظم ما انتجه التطور بشكل واحد بما يتحقق منه أروع مما تخلق به، وهو هو الذي يتعرض في الآونة الحالية لما يزيد تطوري حرج، ذلك أن الإنسان المعاصر قد حقق إضافات علمية وتقنية رائعة هي التي يستعملها في التعامل مع النوعي البشري بكل مستوياته، فتصنيفه في تشكيلات وتنويعات غير مسبوقة بسرعة لا تسمح باختبارها: هل هي لصالح تطويره أم لزواله فنائه.

من خلال هذه الآليات أمكن للسلطات المحتكرة في هذه الآليات أن تؤثر في تشكيلات الوعي بطرق متعددة تبدأ من تعديلات وتنويعات تقاد تشبه ما علمنا إياها الحاسوب ولا تنتهي عند ما نعلم. إن هذه السلطات السياسية المالية الظاهرة والخفية (وغيرها من وسائل التعليم والإعلام) يمكنها أن تضيق للوعي، وتختلف منه، وتعيد تشكيلاً، وتوسيع ذاكرته، وتسرع من حركته، تماماً مثلما نتعامل مع تحسين أو تحييد أو تغريب أي حاسوب (شيء أشبه بإضافة سعة ذاكرة الحاسوب كذا ميجا بايت، أو إضافة قرص عناد خارجي يحمل آلاف المعلومات الالزامية، أو إضافة مفاعل للرسعة يسهل الإنجاز ويعمقه). أصبح من الممكن بقصد أو بغير قصد، بحسن نية أو بسوءها - أن ندخل إلى الوعي برامج مقحمة ليست بالضرورة لصالح التطور أو الوجود الأرقي أو الجمال أو الإبداع، أصبح من الممكن تخليل غرائز استهلاكية قاتلة، وإقحام غرائز أيديولوجية رائفة، وتجميد غرائز دينية راسخة، أصبح من الممكن حشر معلومات اغترابية مدمرة، تماماً مثلما يفعل الساديون أو العابثون حين يوجهون في مسا مملكاً في الكميتو.

وللحدث بقية.